يغادرون ، وفجاة قال لي صوت ما : « ليلة سعيدة يا عاشق » وضحك صوت آخر وراءه ، ثم سمعت صوتا ثالثا يقول لي يا عاشق وعرفت فورا انني فقدت الشيء الاخير الذي حملته معي من تلال ترشيحا .

●

لا احد ، على اي حال ، يعرف كيف ترتب الحياة نفسها .. أحيانا يحسب المرء ان قصة ما انتهت فاذا بها تبدأ . ان مستقبل انسان كاملا تراه فجأة متعلقا بحادث صغير لا قيمة له ، ان عقدة المسبحة اصغر من حباتها ولكنها اذا انفكت كرت ثلاث وثلاثون حبة واحدة اثر الاخرى ، واحيانا ينجرف الماعز الاكبر في القطيع وراء قشرة برتقالة فيتبعه القطيع بأكمله ، وقد يجتاز سياجا فيشتبك الرعاة بالمزارعين ويموت ناس وتفقد دواب وتعقد ولائم الصلح فيأكل فقراء القرية ومجانينها وأطفالها العراة وخيلها وبقرها ، ويرى مدعو ما فتاة ما هناك فيخطبها ويتزوجها وتنجب له أولادا وبنات يعيشون ويموتون ويمشي في جنازاتهم رجال لا يعرفونهم خطوات السنة العشر ويتحدثون وقد يتفقون على شيء او يتشاجرون .

والذي لا شك فيه انه كان مقدرا لقاسم أن يمضي حياته كلها وراء بيت الشيخ سلمان يحادث سمرا وينام الى جوارها فوق هسيس التبن لو لم يدس ذلك الصباح على الرماد الملتهب ويدخل ، بخطواته الثابتة الجريئة ، الى راس الشيخ سلمان وذاكرته ، فحين كان الشيخ سلمان يستوي بمهابة في الحنطور صباح اليوم التالي مستعدا للعودة الى بيته في عكا سأله القيم على مزارعه أن يعين موظفا جديدا يحمل الخضار على ظهور الحمير كل صباح الى حسبة عكا بعد أن ارتكب حامد ذلك الحادث البشع : سرق حمارا وهرب بحمولته الى مكان مجهول تاركا الحمير الثلاثة الاخرى واقفة على عرض الطريق قرب مقبرة عكا الى أن وجدهم رجل بالصدفة .

وكان الشيخ سلمان على عجلة ، شأنه كلما كان على وشك العودة الى عكا ، ولم يكن في ذهنه ايما شيء ، فقال للرجل الذي كان يقف الى جوار العربة : « دع العاشق يتسلم الحمير كل صباح الى حسبة عكا بعد ان ارتكب حامد ذلك الحادث البشع : سرق حمارا في الساحة الخلفية مدركة انه يتعين عليها الانتظار حتى بعد ظهر الخميس القادم كي ترى الشيخ سلمان مرة اخرى ، وأطل قاسم من وراء البيت ورأى الرئيس واقفا ما يزال في حلق الطريق الضيق فأحس فورا بأن شيئا رهيبا سوف يحدث ، وفي اللحظة التالية تلاقت أبصارهما .

رايت في عيني العاشق وميضا مخيفا ، ولاول مرة أحسست بأن هـذا الرجل المتين الصامت الذي جاءني منذ اسبوعين يستجدي أن أعينه حراثا يخفي وراء جلدته شيئا مخيفا لا سبيل الى نكثه ، انه نوع من الرجال ينبت فجأة أمامك فاذا بك غير قادر على نسيانه ، وبدل ان يتجه مثل كل الناس الى الاشياء تتجه اليه الاشياء من تلقائها . كانت قدماه ما تزالان ملفوفتين بكومين من القماش المتسخ وكان اذ يسير يباعد فيما بينهما وينفضهما نفضا ، الا انه لم يكن مضحكا ، كانت سمرا تسير الى جانبه ، وأنا لا أذكر انني رأيت أيا منهما وحده منذ جاء الى هنا . لقد وقف ينظر الي من بعيـد متوقعا أن أستدعيه ، وحين أومأت له بيدي تقدم نحوي بثبات ، وقلت له : « فجر غد ستأخذ الخضار الى الحسبة » .

وكان ذلك ما كنت اتوقعه وأخشاه ولكنني حين سمعته ظللت صامتا كأن الامر لا يعنيني فيما أخذت سمرا تنفض رأسها المتكبر بغضب ، وأخذ الرئيس ينظر الي منتظرا جوابي فيما ظللت واقفا انظر اليه .

وبدا لي انه لا يريد ، فأفهمته ان كل الحراثين يتمنون ان تكون لهم مثل هذه المهمة ، فهي